منهج الشك عند الغزالي وانعكاساته على التفكير

صبحي ريان

جمال أبو حسين

هذا المقال يهدف إلى تحليل قضية الشك عند الغزالي وقراءتها بمنظور فلسفي جديد، كما يلقي الضوء على مسار العملية الشكية ومحطاتها المهمة. ونحاول البرهنة على أن الشك هو منهج في التفكير النقدي يهدف إلى الوصول إلى حقيقة الأشياء، وهو أسلوب بحث رافق الغزالي منذ بداية بحثه حتى نهاية حياته، وليس مجرد أزمة عابرة عصفت به في فترة محددة.

حاول الغزالي إعادة التفكير بالموروث المعرفي والعلوم المكتسبة بواسطة التقليد والحس والعقل. فهو يقوم بعملية مراجعة نقدية التي من شأنها أن تكشف الأخطاء في هذه العلوم وتأسيسها على علم يقيني، وهي عملية حفر في طبقات المعرفة المتراكمة، كي يصل إلى حقيقة الفطرة الأصلية وهي البداية اليقينية التي يؤسس عليها علومه ومعارفه

يقوم الغزالي بعملية إلغاء لكل شيء موجود، إلا أنه لم يستطع أن يلغي شيئا واحدا وهو التفكير لأنه لا يمكنه أن يشك بأنه يشك. ويبقى الغزالي مع التفكير لوحده، محاولا إرجاع الثقة بالعلوم العقلية أولا، لكن بدون جدوى. لأن شكه طال جميع العلوم الأولية أو البدهيات التي يمكن أن تشكل أساسا لعلوم أوسع.

المقدمة

يعرض الغزالي قضية الشك في "المنقذ من الضلال" ويعتبر هذا الكتاب سيرة فكرية يصف المؤلف به تطور فكره ومنهجه في البحث عن الحقيقة، ويتناول أفكار المذاهب المختلفة ذات الحضور في المجتمع الإسلامي في تلك الفترة كالفلاسفة، المتكلمين، الباطنية والصوفية. فهو عرض موجز لتجربته في ميدان البحث والنقد المعرفي.

وليس صدفة أن يعرض الغزالي في هذا الكتاب قضية الشك إلا لكونه منهجا للتفكير وأسلوبا للبحث يمكن بواسطته الوصول إلى الحقيقة. ومما يقوي هذه الدعوى هو مؤلفات الغزالي في فترة الكلام وقبل وصوله إلى الصوفية التي تتناول معظمها نقد الأفكار الرائجة في تلك الفترة مثل أفكار الفلاسفة والباطنية وغيرها. فالشك لم يكن حالة طارئة في حياته، إنما رافق مسيرته الفكرية منذ شبابه حتى وصوله إلى اليقين. ونلاحظ أن الغزالي يحدد

منذ البداية أن هدف بحثه هو الوصول للمعرفة اليقينية، وهذا اضطره إلى مراجعة المذاهب الفكرية ونقدها.

في هذا المقال سنحاول تحليل نظرية الشك عند الغزالي، واثبات الدعوى التي تعتبر الشك منهجا تفكيريا وأسلوبا في التفكير النقدي يهدف إلى تنقية المعرفة من الشوائب والأغلاط وكشف حقائق الأشياء. يظهر أن الشك عند الغزالي هو مراجعة مصادر المعرفة ونقدها من جديد، كما انه تفكير نقدي (Critical thinking) لمعطيات تعتبر مفهومة ضمنًا في الوعي الاجتماعي والمعرفي، أو مسلمات في دائرة اللامفكر به، والمسلمات هي أكثر الأمور غير المفهومة ولأننا لم نجر عليها تفكيرًا منهجيًا. فالشك هو منهج تفكيري موجه إلى صورة التفكير، وليس إلى مضمونها. بل هو عملية إرجاع المضمون إلى الصورة.

هذا الادعاء بأن الشك منهج بحث يتعارض مع كثير من الباحثين ومن بينهم. Osman Bakar الذي يقول: إن الروح العامة لكتاب "المنقذ من الضلال" لا تؤيد الفكرة القائلة بأن الغزالي يدافع عن منهجه الشكي كأداة للبحث عن الحقيقة.... نحن نعتقد بقوة بأن الصوفية لعبت دورا حاسما في وصول الغزالي إلى أزمته المعرفية، التي تدعي بطور ما بعد العقل وتنتقد العقل. والشك لم ينته بواسطة فعالية العقل، إنما نتيجة للنور الإلهي.(١)

من خلال هذا المقال سنحاول أن نثبت عكس الادعاء السابق، وأن نقدم تحليلا جديدا يساهم في فهم قضية الشك عند الغزالي وأهميتها في تنمية التفكير الناقد والإبداعي، وهذا يتطلب النظر إلى قضية الشك في مستويين مختلفين: جدلي ومعرفي.

المستوى الأول: الشك الجدلي

لاحظ الغزالي في جيل مبكر تعدد المذاهب الفكرية واختلافها في بيئته الثقافية والفكرية(٢) وقد وصفها "كبحر عميق غرق فيه الأكثرون وما نجا منه إلا الأقلون، وكل فريق يزعم انه الناجي...".(٣) هذه الاختلافات دفعت الغزالي إلى دراسة وبحث المذاهب الفكرية المختلفة للاطلاع على أسرارها، كي يميز بين محق ومبطل.(٤) حيث وجد أن الانتماء الفكري لمذهب معين ينتج عن التقليد وليس نتيجة للبحث والدراسة " حتى انحلت عني رابطة التقليد، وانكسرت علي العقائد الموروثة، على قرب عهد سن الصبا، إذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على

التهود، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام"(٥). وعند توصله إلى هذه النتيجة اخذ يبحث عن حقيقة الفطرة الأصلية(٦) التي تشكل الأساس لبداية البحث عن الحقيقة. وتكتسب هذه العقائد الموروثة عن الآباء والمعلمين بواسطة التقليد المنافية للتفكير المستقل والبحث الهادف إلى الوصول إلى الحقيقة. لذلك نراه يوصي أحد تلاميذه "جانب الالتفاف إلى المذاهب، ولا تكن في صورة أعمى تقلد قائدا يرشدك إلى طريق وحواليك ألف مثل قائدك ينادون عليك بأنه أهلكك وأضلك عن سواء السبيل، وستعلم في عاقبة أمرك ظلم قائدك. فلا خلاص إلا في الاستقلال"(٧). هذه دعوة واضحة للبحث عن الحقيقة بصورة ذاتية ومستقلة، وعدم اتباع مذهب معين باعتباره يملك الحقيقة ويوفرها لاتباعه. لكن الغزالي يؤكد هنا على أهمية المنهج في التفكير الصحيح وتهافت أساليب التلقي والنقل.

الباحث عن الحقيقة يجب أن يكون مستقلا وغير منتمٍ لمذهب معين وعليه أن يقف جانبًا وينظر إلى الأمور بتمعن (Reflection on action)، كما ينبغي عليه أن ينتبه لتفكيره ويتمعن به خلال عملية التفكير نفسها (Meta cognitive-Reflection in action) " وإنما يرتفع حجاب التقليد بان يترك التعصب للمذاهب .... فان غلب عليه التعصب لمعتقده ولم يبق في نفسه متسع لغيره صار ذلك قيدا له وحجابا إذ ليس من شرط المريد الانتماء إلى مذهب معين أصلا". (٨)

معرفة الحقيقة بواسطة المذهب تقوي عند المقلد ميول التعصب وتصعب عليه رؤية الحقيقة أو التميز بين الحق والباطل، فهو لا يستطيع رؤية الحق خارج الإطار الفكري الذي ينتمي إليه، وهو ينفي إمكانية وجود الحقيقة في مكان آخر ويعتقد بوجود الحقيقة فقط في إطاره.

يصف الغزالي في كتابه "المنقذ من الضلال" تجربته الشخصية في البحث عن الحقيقة، والذي يعتبر مراجعة ذاتية وإجراء عملية تفكير أخرى (Reflective Thinking) وتقييما لتطوره الفكري. وتكمن أهمية هذا التقييم في كشف آرائه ضد التقليد بكونها إحدى العوامل المهمة في تطوره الفكري. ويلاحظ استعماله لضمير المتكلم في وصف تجربته الذاتية، وبالرغم من أن مسار كشف الحقيقة الموصوف كان فرديا، إلا انه يستطيع كل إنسان أن يجرب هذا المسار.

يقول Shafaq بأن الهدف الأساسي عند الغزالي، لم يكن تعبيرا عن الشك أو البحث عن أصول الدين، إنما ليؤسس بحثا معرفيا بنّاءًا وحقيقيا. هذا البحث هو نتيجة لحبه للحقيقة، وكان متعطشا للتعلم وهدفه الحقيقي كان الوصول إلى الحق(٩).

يقرر الغزالي بأن أهمية الفكرة تنبع من الفكرة ذاتها، فالحقيقة تبقى حقيقة بغض النظر من هوية قائلها. وان المهمة الملقاة على عاتق المذاهب ورجالها هي البحث عن الحقيقة، بمعنى انهم لا يعتبرون بذواتهم معيارا للحقيقة. "وهكذا تصبح إنجازات الوعي والمعرفة الإنسانيتين مقبولة بحد ذاتها، مما يؤدي بدوره إلى صياغة المبدأ الدقيق في التعامل الفكري مع الحقائق من خلال تغييب الثقل التاريخي والعقائدي لها... انه يرفع ممارسة إظهار أهمية الفكرة بحد ذاتها فوق كل العوارض العقائدية والمذهبية ليحولها بالتالي إلى مستوى المبدأ النظري.(١٠) وهذا يعتبر تحطيما للأطر التقليدية في الوعي، واشتغالا في المادة الموضوعية التي تعطي مساحة من حرية التفكير المستقل غير متعلقة بعوامل أخرى.

إن رفض الغزالي للتقليد وتأكيده على التفكير المستقل والناقد (Critical thinking) يتضح من خلال تأييده لمبدأ الاجتهاد وقد عمل على تأسيس الفقه على قواعد المنطق وتطوير فكرة الاحتمال الظني كي تكون النظرية مرتبطة بتطور الحياة الدائم، وهكذا لا يبقى للتقليد أي معنى لوجود الحاجة الدائمة للاجتهاد واستقلالية الأحكام.

يعرض الغزالي فكرة الفطرة الأصلية التي تسبق كل المذاهب والأديان الإنسانية، باعتبارها الحالة أو الصورة الأولى التي خلق عليها الإنسان، ويهدف هذا الرجوع إلى البداية إلى بحث حقائق الأشياء كما هي. لكنه لا يستطيع الوصول إلى الفطرة لان التراث المذهبي والعقائدي — المفهوم ضمنا – يشكل حاجزا وحجابا تفصل بينه وبين الفطرة. لذلك كان نقده لأسلوب التقليد بكونه حاجبا عن رؤية الحقيقة كما هي.

يعتقد الغزالي بان الوصول إلى حقائق الأشياء تتطلب معرفة ما هو العلم الحقيقي؟ فظهر له أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ولا يتسع القلب لتقدير ذلك (١١). وهذا يعني أن الغزالي يشك بكل علم غير يقيني، واليقين هو المعيار لحقائق الأشياء، ويكون العلم حقيقيا فقط عندما يكون يقينيا قطعا ويثبت أمام كل ادعاء شكوكي، وهنا يضع الغزالي معيارا صارما لقبول الشيء

المعلوم. بحيث لا يترك مجالا للشك أو الاحتمال لإمكانية وقوع الخطأ، بل يستلزم أمانا كاملا من الخطأ.

ويضرب الغزالي مثالا يشرح من خلاله مستوى الأمان المطلق بالعلم اليقيني: بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنا لليقين مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثلا من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا لم يورث ذلك شكا وإنكارا فإني إذا علمت أن العشرة اكثر من الثلاثة فلو قال لي قائل: لا بل الثلاثة اكبر من العشرة بدليل أني أقلب هذه العصا ثعبانا وقَلَبَها وشاهدت ذلك منه لم اشك بسببه في معرفتي، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه، فأما الشك فيما علمته، فلا.(١٢) وهكذا لا يمكن لبرهان مهما كان أن يشكك بالعلم اليقيني، ومن الجدير ذكره أن مثال "قلب العصا إلى ثعبان" هو بمثابة برهان حسي ظاهر، بالمقابل نجد أن مثال العلم اليقيني — العشرة اكبر من الثلاثة — هو مثال عقلي مجرد. هذا المثال الحسي ليس مجرد مثال الذي بواسطته يمكن الشك بالعملية العقلية، إنما هو مثال الأكثر تطرفا الذي يمكن من خلاله نقض العلم اليقيني. بمعنى أن العلم اليقيني الذي يبحث عنه الغزالي هو بمستوى المطلق الذي لا يمكن الشك به أبدا. وفي حالة الأمان المطلق يستطيع العلم اليقيني أن يثبت في الاختبار الصعب حتى بوجه الافتراض الميتافيزيقي الخارج عن عالم الحس.

المستوى الثاني: الشك المعرفي

بعد أن حدد الغزالي معيار العلم الحقيقي، وجد أن علومه التي اكتسبها بالتقليد لا تثبت بهذا المعيار، فذهب لاختبار علومه المكتسبة بواسطة الحس والعقل، ويبدأ بحثه في عالم الحس بكونه المرحلة المعرفية الأولى "فأقبلت بجد بليغ أتأمل في المحسوسات والضروريات، وانظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها"(١٣). ويصف الغزالي شكه بالحواس قائلا: من أين الثقة بالمحسوسات، وأقواها حاسة البصر، وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفا غير متحرك، وتحكم بنفي الحركة؟ ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف انه متحرك وانه لم يتحرك دفعة واحدة بغتة، بل على التدرج ذرة ذرة حتى لم يكن له حالة وقوف. وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيرا في مقدار دينار، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار. هذا وأمثاله يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ويكذبه حاكم

العقل ويخونه تكذيبا لا سبيل إلى مدافعته، فقلت: قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضا فلعله لا ثقة إلا بالعقليات التي هي من الأوليات(١٤).

إذا يفقد الغزالي الثقة بالمحسوسات بعد أن تبين له تضليل الحواس في بعض الحالات. ويحاول إثبات هذه الفرضية بواسطة أمثله من عالم الحس التي يحكم بها العقل بخطأ الحواس.

بعد اختبار معطيات الحس والتشكيك بها، ينتقل الغزالي لاختبار معطيات العقل الذي يعتبر مرحلة معرفية اكثر تطورا من الحواس وحاكما عليها وبإمكانه التميز بين الصح والخطأ بالنسبة للأشياء المتعلقة بالحواس. ولكن الإشكالية التي تواجه الغزالي في بحثه هي "فلعل وراء إدراك العقل حاكما آخر، إذا تجلى، كذب العقل في حكمه، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه. وعدم تجلي ذلك الإدراك لا يدل على استحالته. فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلا وأيدت أشكالها بالمنام، وقالت: أما تراك تعتقد في النوم أمورا وتتخيل أحوالا وتعتقد لها ثباتا واستقرارا، ولا تشك في تلك الحالة فيها ثم تستيقظ فتعلم انه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل؟ فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك بحس أو عقل هو حق بالإضافة إلى حالتك التي أنت فيها، لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك كنسبة يقظتك إلى منامك وتكون يقظتك نوما بالإضافة إليها فإذا وردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها"(١٥).

هنا يفترض الغزالي وجود طور ما بعد العقل الذي يمكنه أن يحكم على معطيات العقل بكونه مرحلة معرفية اكثر تطورا من العقل. ويمكن تجربة هذا الطور عند تخلص الإنسان من الحواس والعالم المادي المحيط به. وقد يصل الإنسان إلى هذه الحالة تلقائيا بعد الموت، ولكن يمكن الوصول إليه أيضا في حالة الكشف والإلهام الصوفية التي تتطلب جهدا فكريا كبيرا أو تفكيرا مجردا من شأنه أن يقلل من وظيفة الحواس لمستواها الأدنى.

ويظهر هنا تأسيس المعرفة على ثلاث مراحل — الحواس، العقل وطور ما بعد العقل– ويبدو أن الفارق بين الحواس والعقل شبيها للفارق بين العقل وطور ما بعد العقل، لكن هذه المراحل ليست منفصلة إنما هنالك علاقات تبادل وتكامل فيما بينها.

يحاول الغزالي إثبات طور ما بعد العقل بواسطة "ادعاء النوم" الذي يبين عدم يقينية الوجود. ويعرف الإنسان الوجود ويحكم عليه من خلال الحواس والعقل، وهو لا يشك بهذه المعرفة ويعتبرها يقينية. بالمقابل عندما يمر الإنسان بتجربة الحلم يكون واثقا بالأشياء التي يراها في حلمه بدون أن يشك بها وقت الحلم. لكن يتغير حكم الإنسان عند رجوعه إلى الواقع. إذا نحن أمام حالات مختلفة، وكل منها صحيحة بإطار الزمن الموجودة فيه وكل حالة لها الأحكام الخاصة بها.

وهنا يتساءل الغزالي لعل الحقيقة الظاهرة في الواقع هي حقيقة فقط بالنسبة لهذا الواقع وخاصة أننا ندرك هذا الواقع بنفس المفاهيم والبنى المعرفية التي تعلمناها من نفس هذا الواقع، لكنها ليست صحيحة بالنسبة إلى حالة أخرى والتي نسبتها إلى الواقع كنسبة الواقع إلى النوم، وعندما نجرب هذه الحالة نتيقن أن الأشياء التي نكتسبها بواسطة العقل خيالات غير صحيحة.

في حالة النوم لا يعرف الإنسان انه في حالة حلم، ويتضح له ذلك فقط عند اليقظة، كما أن الإنسان لا يعرف انه يحلم في الواقع لكن يمكن أن تظهر حالة ما بعد الواقع تثبت أن الواقع كان حلما بالنسبة لها، وهكذا ليس الواقع ضمان لليقين.

يشكل هذا الادعاء إشكالية صعبة بالنسبة إلى القضايا الحسية والعقلية معا، وهو يشكك بجميع مصادر المعرفة الإنسانية بحيث يجعل إمكانية تحقيق اليقين غاية في الصعوبة بل مستحيلة المنال. يصل الغزالي إلى حالة صعبة جدا، فهو لا يستطيع إيجاد حل للشك الذي يشمل كل الموجودات في هذا العالم، فهو شك في المستويين المعرفي والوجودي معا لأنه بحث في هل وكيف يمكننا معرفة الواقع؟ وما هو الموجود في الواقع؟

ويدخل الغزالي إلى أزمة عميقة بسبب الشك بالحواس والعقل، ويصف هذه الحالة قائلا: "فأعضل هذا الداء ودام قريبا من شهرين أنا فيها على مذهب السفسطة بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال"(١٦). وتعتبر هذه الحالة أوج المسار الشكي والموصوفة بمرض عضال والتي كان لها تأثيرا على كيانه ووجوده ويمكن اعتبار هذه الحالة بالشك الوجودي.

حاول الغزالي الخروج من هذه الأزمة بدون جدوى، لأنه لا يمكن إيجاد أجوبة لهذه الشكوك والتساؤلات إلا بواسطة البراهين التي تقوم على العلوم الأوليه، فهو يحتاج إلى

مسلمة واحدة على الأقل للانطلاق إلى يقينيات اكبر. لكن هذه العلوم مشكوك بها أيضا، لذا لا يمكنها أن تشكل أساسا للتخلص من الشك.

هذا الوضع يستلزم تدخل عامل خارجي لتأسيس المعرفة الإنسانية عليه، لأن العقل الطبيعي لا يكفي لتأمين يقينية المعرفة الإنسانية، هنا يكتشف الغزالي "النور الإلهي" الذي يخلصه من أزمة الشك "حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها على أمن ويقين ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام بل قذف الله تعالى في الصدر وذلك النور هو مفتاح اكثر المعارف، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله الواسعة"(١٧). بالرغم من أهمية النور الإلهي إلا أن الغزالي لم يسهب في شرحه وتفصيله، لكننا يمكن أن نستنتج أن هذا النور لا يتعارض مع العقل بالرغم من انه ليس عقليا، ومن ناحية أخرى لا يمكن اعتباره لا عقليا لأنه يوصل إلى الحقيقة في القضايا العقلية ويقوي يقينية البدهيات العقلية.

يشرح الغزالي صعوبة البحث في البدهيات العقلية، فهي أوليه بمعنى أنها موجودة، لكن يصعب برهنتها لأنها لا تخضع لمنطق البدهيات. بمعنى أن هذه البدهيات لا نستطيع البرهنة على صحتها أو خطئها. ومع ذلك يحاول الغزالي أن يتجاوز الحدود العقلية للبدهيات للتأكد من يقينيتها المجردة حيث يقول: "والمقصود من هذه الحكايات أن يعمل كمال الجد في الطلب حتى ينتهي إلى طلب مالا يطلب. فان الأوليات ليست مطلوبة، فإنها حاضرة والحاضر إذا طلب فقد واختفى. ومن طلب ما لا يطلب، فلا يتهم بالتقصير في طلب ما يطلب" (١٨). وهذا يعني تأسيس العلم اليقيني على أساس صلب لا يمكن الشك به. وهو يرى بالنور الإلهي ذلك اليقين اللامنطقي الذي يمكن أن يؤسس عليه البدهيات العقلية. وبهذا يلجأ الغزالي إلى منطق يختلف عن المنطق العقلي من حيث المستوى، فهو يحتاج إلى منطق فوق المنطق العقلي.

دور الشك في نظرية المعرفة عند الغزالي

نلاحظ أن مهمة الشك الأساسية عند الغزالي هي الوصول إلى الحقيقة كما هي، فهو أداة أو منهج معرفي يهدف إلى تنقية (غربلة) المعرفة الإنسانية من أخطائها وجهالاتها، وليس

منهجا لكشف عجز المعرفة والتشكيك بمجمل إبداعاتها وإنجازاتها. فالشك أداة تكشف الأخطاء المعرفية التي يكتسبها الإنسان من مصادر غير موثوقة، وتثير عنده تساؤلات يسعى من خلالها إلى تأسيس المعرفة على أسس يقينية. لذلك يكون الشك موجها نحو المنهج وليس للمعرفة ذاتها.

ويوضح الغزالي وظيفة الشك قائلا: "... الشكوك هي الموصلة إلى الحق، فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال" (١٩). لا يكتفي الغزالي بتحديد دور الشك كمنهج يوصل إلى الحقيقة، إنما يحذر من العواقب السلبية التي تنتج بسبب عدم استخدام هذا المنهج، وهي البقاء في العمى والضلال.

بالإضافة إلى ربطه بين الشك والوصول إلى الحق، يؤكد الغزالي على منهجية كشف الحقيقة التي تبدأ بالشك والتساؤل وتنتهي بالوصول إلى الحق. وإذا ما أمعنا النظر في ربطه بين الشك والنظر من ناحية وبين النظر والبصر من ناحية أخرى، نستنتج أن الشك يعني إثارة الأسئلة وعملية التفكير، لان النظر يعني الدراسة العميقة التي تعتمد على العقل، والبصر هو الدراسة المعتمدة على الحس. وهذا يعني أن كل دراسة عقلية أو تجريبية تهدف إلى الوصول إلى الحقيقة، يجب أن تعتمد على منهج الشك الذي يميز الحق من الباطل أو الصحيح من الخطأ.

فالشك منهج يسعى إلى تأسيس المعرفة على أسس يقينية، يتم الوصول إليها بواسطة التفكير النقدي وإثارة التساؤلات غير المألوفة والتي تهدف إلى مراجعة المعطيات المعرفية وتمحيصها من الأخطاء. فالغزالي يقوم بعملية تفكير من جديد في مصادر المعرفة — التقليد، الحس والعقل — وهي عملية مراجعة نقدية وتقييم جديد لهذه المصادر.

يحاول الغزالي من خلال هذا المنهج النقدي تطهير الموروث المعرفي المكتسب بواسطة تقليد الآباء والأساتذة من الأخطاء والضلالات. فهو لا يسعى إلى إلغائه أو نفيه، إنما إلى فحصه واختباره.

هذا المنهج النقدي يمكنه كشف المعارف الباطلة والتي أصبحت جزءا من الموروث الحضاري للامة، وتنتقل من جيل إلى آخر كمعارف صحيحة ومقبولة، وفي بعض الأحيان قد تعتبر "مقدسة" خارج دائرة التفكير المسموح بها. وهي بالحقيقة معارف غير صحيحة ويظهر خطأها عند إخضاعها لآليات التفكير النقدي والمستقل.

ثم ينتقل الغزالي إلى نقد الحس والعقل كمصادر للمعرفة، وهما اكثر يقينا من التقليد. وإذا ما خضعا إلى النقد يتبين لنا عدم يقينية المعارف المكتسبة من الحس والعقل. والتشكيك في هذه المعارف لا يعني سوى إعادة التفكير بها من جديد وتأسيسها على قواعد يقينية وصحيحة، وليس الهدف مجرد التشكيك لذاته وكشف عجز الحس والعقل.

ويمكن القول أن استخدام منهج الشك هو دليل واضح على وجود الوعي عند الغزالي لان التفكير يعني الادعاء بوجود الوعي. ونلحظ أن مستوى الوعي الراقي الذي وصل إليه الغزالي هو إعادة التفكير في التفكير חשיבה על חשיבה والذي يعني وعي الوعي أو تحويل مادة التفكير إلى صورة تفكير أو أداة تفكير، فالغزالي يقوم بعملية تفكير نقدية لمادة معرفية سبق التفكير بها، ويعمل على تحويلها إلى منهج للتفكير. وهذه العملية تعتبر أرقى مستويات التفكير والوعي المعرفي، وهي نقيض الاجترار المعرفي الذي يحفظ المضمون ويجمده.

ومعنى الشك بالمعارف الحسية والعقلية والتي تمثل كل موجود في العالم، واثبات عدم يقينية هذه الموجودات هو عمليا إلغاء لها وإرجاعها إلى التفكير، وتأسيس كل شئ على التفكير. فهو يشك في كل شيء، إلا شيئا واحدا لا يمكنه الشك به وهو الشك بأنه يشك، أي انه لا يستطيع الشك بأنه يفكر، وهذا هو وعي الوعي. إذا يقوم الغزالي بعملية إلغاء للعالم كله بواسطة الشك المنهجي، ويبقي على التفكير لوحده. فهو يلغي المضمون المعرفي ويبقى مع طريقة التفكير، وهذا يعني انه ليس هنالك وجود سوى للتفكير. وهنا لا يمكن الحديث عن "تطابق" لان التفكير هو(شئ) أي حقيقة صورية. ووجود أداة التفكير لا يعني بالضرورة تطابقها مع المضمون المعرفي الموجود.

يحصر الغزالي نفسه داخل دائرة التفكير، ويحاول ترتيب أفكاره للخروج منها. فاتضح له أن هناك أفكار ضرورية (ماهيات) والتي تملك وجودا مستقلا وضروريا داخل الوعي. بمعنى أنها تفرض نفسها على الوعي من داخل الوعي وليس من خارجه وهي ليست من الأنا المفكرة. فهو يجد مثلا فكرة الله داخل الوعي، لكن هذه الفكرة لم تكن نتيجة للتفكير، وإنما وجودها كان ضروريا ومفروضا على الوعي من داخله. وهذا ما عبر عنه الغزالي بالنور الإلهي المقذوف في الصدر ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بمعنى

أن هذه الماهيات أو الأفكار لم تنتج عن التفكير العقلي، إنما وجودها بالوعي كان فطريا. وهذا ما يفسر محاولة الغزالي الرجوع إلى الفطرة الأصلية.

فهو يشك بكل موجود لاعتقاده بوجود شيء هو البداية، ويحاول إلغاء كل شئ موجود للوصول إلى نقطة البداية، لان هذه الموجودات تشكل حاجزا لكشفها. وسبب هذا السعي الدؤوب إلى البداية لأنها تشكل الأساس اليقيني لكل الموجودات. فالوصول إليها يعني الوصول إلى اليقين وهو مرتبط بالوعي الذاتي، لذلك يمكن الانتهاء إليه وليس الابتداء منه.

لذلك يقوم الغزالي بعملية نقد شاملة وتقييم جديد للعلوم التي اكتسبها عن طريق التقليد أو الحس والعقل، وهو بذلك يزيل كل التراكمات العقائدية، الاجتماعية والابستمولوكية التي تغطي الفطرة الإنسانية. وهو يسعى للوصول إلى هذه البداية لكونها الحقيقة اليقينية الوحيدة التي يمكن أن يؤسس عليها يقينية الموجودات الأخرى.

من الوهلة الأولى يبدو أن هذا الأسلوب متناقضًا لان العقل العادي يعرف أننا نبدأ من البداية وليس ننتهي إليها. لكن التفكير النقدي يتعدى "اعتيادية التفكير" باعتباره منهجًا وليس مجرد مضمون، لذلك نلاحظ أن الغزالي يدرك ضرورة وأهمية الانتهاء إلى البداية لأنه لا يمكن الوصول إليها إلا بعد عملية نقد وتقييم من جديد لكل الموروث المعرفي التراكمي، وهو حفر بأدوات معرفية في طبقات المعرفة الإنسانية حتى يصل إلى حقيقة الفطرة الأصلية التي شوهت بسبب التراكمات الكثيرة عبر التاريخ الإنساني.

الخاتمة

نلاحظ أن الغزالي يحدد في بداية بحثه الهدف الذي يسعى للوصول إليه وهو تحصيل العلم اليقيني، ويتخذ من الشك المنهجي أداة لتحقيق هذا الهدف. فالشك وإثارة الأسئلة غير التقليدية كانت الأداة التي كشفت حقيقة العلوم المكتسبة من المحيط الثقافي والموروث المعرفي، وكشف الغزالي بواسطة الشك عدم يقينية الحس والعقل. كما توصل أيضا إلى الأساس اليقيني الذي يبنى عليه يقينيات الموجودات الأخرى. بمعنى أن هذه الموجودات أو العلوم المختلفة المكتسبة من التقليد أو الحس أو العقل تحتاج إلى أساس يقيني صلب لأنها لا تحمل بذاتها براهين تثبت يقين علومها.

لقد بدأ الغزالي بحثه من النهاية ولم تكن البداية مبدأ بحثه، فهو يلغي ويهدم كل شيء للوصول إلى البداية، وهو يعلن عن نجاحه بعد كل هدم يقوم به، وقد عبر عن ذلك مثلا بإعلانه "انكسار زجاجة التقليد" حتى يصل إلى الانكسار الكبير وهو انكسار العقل الذي لم يتم إلا بجهد عظيم. وبعد نجاحه بهذه الانكسارات ينكشف له اليقين هدف البحث ليؤسس عليه صرح المعرفة اليقينية من جديد.

لقد أدى هذا التفكير النقدي الشامل إلى مراجعة تَقَيُمِيَّة لجميع المعارف التي اعتبرت مقبولة زمنا طويلا، وأدى إلى زعزعة الثقة بالمفاهيم التي اعتبرت موثوق بها ضمنا. وهذا أدى بدوره إلى مراجعة العلوم حسب معايير منطقية وآليات ووسائل تفكير منهجية تميز الصحيح من الخطأ

الهوامش

١) Osman Bakar, "The Meaning and Significance of Doubt in AL-Ghazzali's Philosophy", *The Islamic Quarterly*, ١٤٦, {٣١-٤٤} Park Road, London N.W.٨, ١٩٨٦, PP ٣٨-٣٩.

٢) تميزت تلك الفترة بكثرة الفرق الدينية والمذاهب الفكرية مثل الباطنية، الفلاسفة، الصوفية والكلام.

٣) الغزالي، *المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال*، تحقيق جميل صليبا وكامل عياد، دار الأندلس، بيروت، ص٧٨.

٤) الغزالي، *المنقذ من الضلال*، ص٨٠.

٥) الغزالي، *المنقذ من الضلال*، ص٨١.

٦) الغزالي، *المنقذ من الضلال*، ص٨١.

٧) الغزالي، *ميزان العمل*، تقديم علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩٥، ص٢٢٢.

٨) الغزالي، *إحياء علوم الدين*، ج٣، دار الفكر، بيروت، ص ٧٥.

٩) S.R. Shafaq. Some Abiding Teaching of AL-ghazali", *The Muslim World*, V.٤٤, ١٩٥٤, p.٤٤

١٠) ميثم الجنابي، *الغزالي*، ج١، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ١٩٩٨، ص٤٠.
١١) الغزالي، *المنقذ من الضلال*، ص٨٢.
١٢) الغزالي، *المنقذ من الضلال*، ص٨٢.
١٣) الغزالي، *المنقذ من الضلال*، ص٨٤.
١٤) الغزالي، *المنقذ من الضلال*، ص٨٤.
١٥) الغزالي، *المنقذ من الضلال*، ص٨٥.
١٦) الغزالي، *المنقذ من الضلال*، ص٨٦.
١٧) الغزالي، *المنقذ من الضلال*، ص٨٧
١٨) الغزالي، *المنقذ من الضلال*، ص٨٨
١٩) الغزالي، *ميزان العمل*، ص٢٢٢.

הספק אצל אלגזאלי והשלכותיו על החשיבה

תקציר

מטרת מאמר זה היא לנתח את נושא הספק אצל אלגזאלי ולראותו כפן פילוסופי חדש. כמו-כן הוא דן בתחנותיו העיקריות של תהליך הספק. במאמר המחברים מנסים להוכיח, שהטלת הספק הנה שיטת מחקר שליוותה את אלגזאלי מראשית מחקרו עד סוף ימיו, ואינה משבר שחלף בתקופה מוגבלת כלשהי. היא שיטה בחשיבה הביקורתית שמטרתה להגיע אל האמת של הדברים.

אלגזאלי ניסה לחשוב שנית על הידע המולד ועל המדע הנרכש באמצעות החיקוי, התחושה והשכל. הוא נוקט שיטת רפלקציה ביקורתית, שהיא בעצם מעין חפירה בשכבות הידע המצטבר כדי להגיע אל נקודת המוצא: ההתחלה האמתית, המבסס עליה את מדעו ואת ידיעותיו; שיטה זו יש בה משום גילוי הטעויות והשגיאות במדעים והשתתתם על מדע הגיוני-אמתי.

אלגזאלי שולל כל דבר קיים, אך את החשיבה לא יכול לשלול, מפני שאינו מטיל ספק שהוא מטיל ספק. הוא נשאר לבד עם החשיבה ומנסה להחזיר את האמון במדע השכלי בשלב הראשון, אולם ללא הועיל מאחר שהטיל ספק בכל המדע הראשוני או העובדתי שיכול לשמש בסיס למדע רחב יותר.